الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

شخصية

صداقات ماركس

على العكس مما يظن بعضنا لم يكن فردريك أنجلس هو صديق كارل ماركس الوحيد، وإن كانت الصداقة التي ربطتهما هي الأقوى والأخصب في حياة الرجلين. كان ماركس بطبعه وفوران روحه الاجتماعية ميالاً إلى عقد الصداقات وإدامتها على الرغم من متطلبات وضعه مفكراً وفيلسوفاً، والتي تدفعه بالضرورة إلى العزلة والتوحد. لكن تلك الصداقات، كانت تتنفس أبداً في أجواء فكرية عارمة، وفي ساحات الكفاح السياسي المحتدم. أي أن ماركس كان يبحث عن الصديق الصنو، والصديق الند، والصديق المتفهم والمتعاطف، والصديق التابع (فكرياً وسياسياً).

سعد محمد رحيم

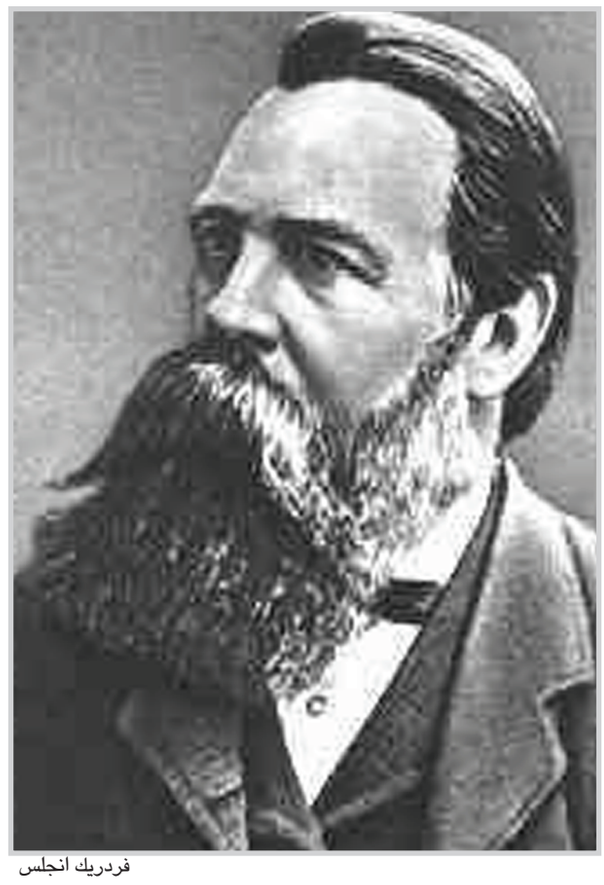
فردريك انجلس

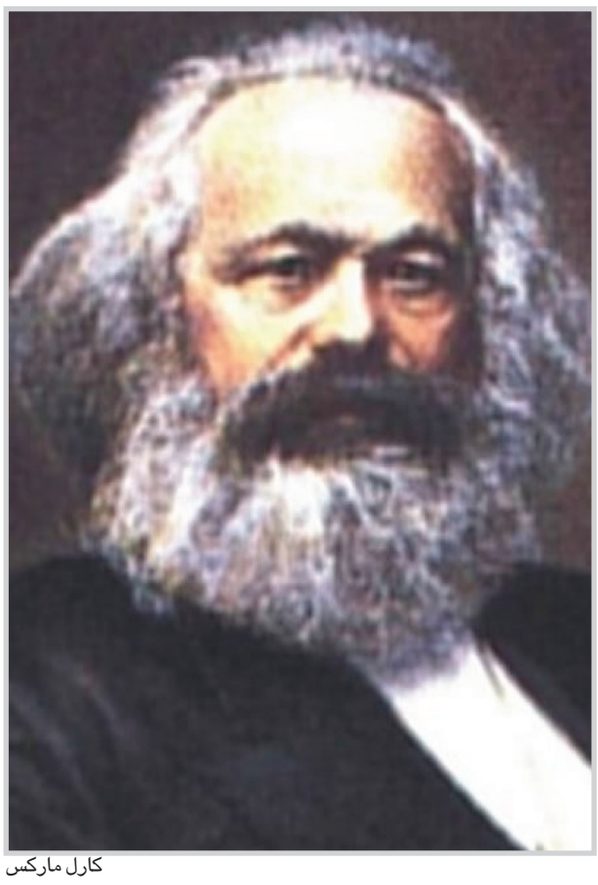
كارل ماركس

وأية قراءة لسيرته في هذا الجانب تُرينا كيف أن تلك الصداقات كانت تفضي إلى تفاعلات فكرية مثمرة، تنعكس عنها التماعات واستبصارات وشرارات فكر ببلاغة رفيعة نفاذة. وتُنتج عنها مقالات ودراسات ورسائل وكتب شكّلت بمجملها ما يُعرف اليوم بالمنابع الرئيسة للفكر الماركسي. ولولا تلك الصداقات ربما لم تكن للنظرية الماركسية أن تتخذ صيغها وسماتها ومحتوياتها ومساراتها التي انتهت إليها فيما بعد.

لم يكن ماركس فيلسوف البرج العاجي.. العقل البرجوازي المغرور الذي يراقب العالم من عل مثل إله زائف. ولم يكن من أولئك المفكرين والفلاسفة الذين تستغرقهم النظريات المجردة فيهيمون في عوالمها التي قد تكون متسقة منطقياً في الظاهر لكنها لا تصمد في أثناء خضوعها لامتحان الواقع والتاريخ. والواقع والتاريخ مثلما نعلم هما اللذان يُكسبان الفكرَ الحرارة والصدق والمعقولية والروح، ويجعلانه مصدر إضاءة لهما، وأداة للتغيير. وهذا كله كان يفرض على ماركس النزول إلى أرض الواقع والانغمار في معمعة النشاط السياسي. وكان بحاجة إلى خوض نقاشات حامية مع الآخرين، أو تبادل الآراء والأفكار معهم عبر الرسائل. وبذا كانت الصداقات تساهم في بلورة قناعات ماركس وأفكاره.

لم يكن كارل ماركس، في مراحل حياته المختلفة، على وفاق مع أصدقائه كلهم (ربما باستثناء أنجلس) فقد دخل في سجالات ساخنة مع أولئك الذين عرفهم عن قرب. وأحياناً كانت السجالات تلك تؤدي إلى الخصومة والقطيعة الاجتماعية. فماركس لم يكن ممن يتساهلون في مواقفهم وآرائهم، أو يتملقون أصحاب الشأن والمال.

كان ماركس حاداً وساخراً فيما يكتب، وكانت تحليلاته العميقة وتعليقاته المتهكمة تربك أصدقاءه ومناوئيه في الوقت عينه. وهذا ما جعل بعضهم ينجذب عن قناعة إلى حلقته، وبعضهم الآخر ينفر منها.

إن روحه الاجتماعية المتفتحة، ومرحه، وحتى سخريته المريرة، في أوقات المحن والفاقة، كانت عناصر لتغذية صداقاته، وإنقاذه من حالات العزلة والكآبة واليأس. ولذا كان ماركس في أحلك الظروف ذا إرادة قوية، ونفس وثّابة متفائلة.

من ناحية أخرى كان عمله في الصحافة لسنوات عديدة مناسبة للتواصل مع الآخرين وعقد علاقات عمل وصداقة معهم. قد تكون مؤقتة عابرة أحياناً وقد تكون دائمية وراسخة أحياناً. وفي النهاية كان عقل ماركس ينضج يوماً بعد آخر بتأثير عوامل شتى واحد منها صداقاته مع من كانوا جديرين بتلك الصداقة وذوي فائدة في تحفيز فكره ليترك لنا ذلك الإرث الوفير والثري والخلّاق.

عاش ماركس طفولته في أجواء عائلية حميمة.. العلاقة الزوجية بين أبويه ممتازة، والمناخ العام في البيت لا يكاد يعكّره شيء، وأخته الكبرى (صوفي) تضفي من روحها المرحة على ذلك المناخ ما يجعل الأيام تمر بيسر وفرح وسلام. وإذا كان ذكاء كارل وقوة شخصيته وشغفه بالثقافة والعلم شروط ضمان تُطمئن العائلة على مستقبل ابنها فإن الأب "لاحظ من طرف خفي الشيطان الذي يركب ابنه المفضل". بالمقابل ستبقى الأم لسنوات طويلة تشعر بالأسى لأن ابنها لم يسلك السبيل القويم ويصبح محامياً كأبيه، وأهدر طاقته في دراسة الرأسمالية ونقدها والنضال ضدها بدل أن يعمل من أجل جمع رأس مال محترم يعينه في مواجهة صعوبات الحياة المعيشية!.

لم يشر ماركس في أية مناسبة إلى رفاق مدرسته في (تريير) حيث تخرّج في كليتها، ويبدو أن لا أحد منهم ترك، هناك، تأثيراً قوياً عليه. ومن أولئك لم يدل أحد بتصريح أو تعليق عن كارل ماركس حين اتسعت شهرته بعد سنوات.

كان والده أول أصدقائه ربما.. يشجع ابنه على الاغتراف من منابع الثقافة ويحس بالقلق لما يلمسه من طبيعة صلبة في شخصية الفتى والتي تختلف عن طبيعته هو اللينة. وسيكتب ماركس رسالة مفصلة عن سنته الأولى في برلين (بدءاً من تموز ١٨٣٦) موجهاً لوالديه، يتحدث فيها بطلاقة، ومن دون مواربة، صديقاً لأصدقاء، عن كفاحه الصعب للقبض على الحقيقة، حيث "يصل به الأمر إلى حد الإنهاك الجسدي والعقلي، كما تكشف عن ظمأه الذي لا يرتوي إلى المعرفة، وقدرته التي لا حدود لها على العمل المتواصل ونقده القاسي لنفسه". وكان والد خطيبته جيني (لودفيغ فون فستفالن) صديقاً من نوع آخر. وقد وجد كارل في منزل فستفالن جواً ثقافياً منعشاً يفتقر إليه منزل والديه، وكذلك مدرسته. وسيبقى يخاطب الرجل الكبير بـ (صديقي الأبوي العزيز) ويحس تجاهه بأعظم العرفان.. كان فستفالن "يلقي مقطوعات كاملة من قصائد هومر، وكان يحفظ عن ظهر قلب معظم مسرحيات شكسبير بالإنكليزية، وبالألمانية أيضاً".

ظل ماركس طوال سنوات عمره بحاجة إلى ذلك الطراز من الأصدقاء الذين يتحملون ثمن صداقته ويمضون معه إلى آخر الشوط. وكانت جيني فستفالن (ولدت في ١٨١٤) التي "تنحدر من عائلة نبيلة رجعية بروسية. شقيقها الأكبر كان وزيراً للداخلية في بروسيا في مرحلة كانت من أشد المراحل إغراقاً في الرجعية، وذلك بين ١٨٥٠ و ١٨٥٨" بتوصيف لينين، من ذلك الطراز. فجيني، من جهة ثانية، كانت الفتاة الذكية فائقة الجمال وابنة موظف ذي مركز مهم وصديقة أخته (صوفي) والتي تكبره بأربعة أعوام. وقد ضحّت بالفرص الطيبة كلها، المتاحة لها لزواج بورجوازي مستقر، وراهنت على "مستقبل خطر غير مأمون" على حد تعبير والد ماركس نفسه (هنريخ ماركس) بعلاقتها العاطفية مع كارل الذي سيكون زوجها وستكابد معه، خلال السنوات المقبلة، عذابات وظروف النفي والتشرد والفقر والجوع. وحتى هو على فراش الموت سيتذكر ماركس "بلهجة حزينة" الفترة السعيدة من شبابه التي أمضاها مع جيني؛ "أجمل فتاة في تريير" مثلما كان يفتخر.

انضم ماركس إلى نادي الهيغليين (اليساريين) الشباب في عام ١٨٣٨ وهو في جامعة برلين.. كان آنذاك في العشرين من عمره. وبطبيعة الحال، سيكون بعض أعضاء ذلك النادي من أوائل أصدقائه الذين تجمعهم هواجس الثقافة والسياسة. وفي إحدى رسائله يخبر ماركس أباه بأن أقرب أصدقائه إليه هو روتنبرغ (وكان يعلّم الجغرافيا في مدرسة برلين للضباط). والذي سرعان ما سيُطرد من مدرسته لكتابته مقالات حاقدة معارضة للدولة في صحف ليبزغ وهامبورغ. وكان روتنبرغ ناشطاً ثورياً لا يستهان به، ولا تغفل عنه عين السلطة الأمنية. "وفي أيام ١٨٤٨ كان فردريك وليم الرابع يرتعد أمام روتنبرغ معتقداً أنه المحرِّض الحقيقي للثورة".

ولأنه جذب الاهتمام بسبب حدّة ذكائه وقوة أفكاره ونشاطه صار ماركس مركز نادي الهيغليين الشباب ليكون أبرز عضوين فيه صديقين مقربين له وهما كارل فردريك كوبن وبرونو باور. وقد نشر الأول كتاباً في عام ١٨٤٠ حمل الإهداء التالي: "إلى صديقي كارل ماركس". وأشار، في حينها، سجالاً حاداً. وكان كوبن متخصصاً في حقول البحث التاريخي، واستهدف كتابه "التقاط خيوط حركة الاستنارة البرجوازية في القرن الثامن عشر". وسيلاحظ روغه أن القاسم المشترك بين ماركس وكوبن هو الانطلاق من تلك الحركة. لكن ماركس لم يوافق على ما جاء في الكتاب الذي حمل اسمه، ولاسيما فيما يخص مقارنة كوبن بين بُعد الاستنارة فيما يقوله الفيلسوف كانط وتخريجات فردريك الأكبر الزائفة الذي كان كوبن يرى فيه ملكاً عظيماً وفيلسوفاً عظيماً!. وبعد مدة قصيرة اختلفت السبل بين الصديقين إلاّ أنهما ظلا محافظين على صداقتهما.

ولما عاد ماركس لزيارة برلين بعد ذلك بعشرين سنة "وجد كوبن كما كان دوماً، واحتفى الاثنان بلقائهما وأمضيا معاً كثيراً من الساعات الممتعة". وقد توفي كوبن في عام ١٨٦٣. أما برونو باور فكان القائد الحقيقي لنادي الهيغليين الشباب. وكانت علاقته منذ البدء وطيدة مع ماركس. وفي هذه الأثناء هاجم باور كتاب شتراوس (حياة يسوع) معلناً أن "المسيحية لم تُفرض كدين عالمي على العالم الروماني ـ الإغريقي القديم، ولكنها كانت نتاج هذا العالم... وقد اكتشف في الأناجيل الترسبات الفكرية للعصر الذي وضعت فيه". وفي إحدى المرات حين يدخل ماركس بون ولا يجد فيها برونو باور يقول: "من المؤسف أن لا يبقى أحد (في بون) ليضايق الأرثوذكسيين"!.

كان باور مخلصاً لفلسفة معلمه هيغل أكثر من كوبن. وفي مقابل معرفته الفلسفية الواسعة كان يعاني قصر نظر في مجال السياسة مثلما يقول فرانز مهرنغ. واهتم الأصدقاء (كوبن وباور وماركس) بفلسفة وعي الذات الإغريقية، ملتقطين "خيوط حركة الاستنارة البرجوازية" من خلالها. فتلك الفلسفة، بحسب مهرنغ، أدت دوراً تاريخياً عظيماً "فهي قد فتحت أمام العقل البشري آفاقاً رحبة جديدة وكسرت الحدود القومية للهيلينستية، كما كسرت الحدود الاجتماعية للعبودية. تلك الحدود التي لم يحلم أفلاطون ولا أرسطو باجتيازها". وهنا درس ماركس الفلسفة الإغريقية بعمق وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة يينا عن أطروحته حول الفلسفة الطبيعية عند أبيقور وديمقريط والفروقات بينهما.

ضيّق الملك الجديد على حرية الصحافة في الولايات البروسية في عام ١٨٤١، وجرى إعداد قانون صارم للرقابة على المطبوعات ما حدا بالصديقين ماركس وباور إلى صرف النظر عن إنشاء مجلة خاصة بهما في هذا الوقت، وقررا المساهمة في مجلة (دويتشه ياربشر) التي أصدرها روغه في دويسدن. وستعاني هذه المجلة هي الأخرى من الرقابة، إذ سيكون من المستحيل نشر مقالة ماركس فيها عن تعليمات الرقابة الأخيرة كما سينبئ روغه ماركس في رسالة يوجهها إليه.

كان روغه يكبر ماركس بستة عشر عاماً، وكان مثل كوبن وباور يؤمن بقدرات ماركس الذهنية، وعبقريته الواضحة، ويحترمها، لكنه كان (مثل بقية الناشرين والأصدقاء) يضيق ذرعاً ببطء إيفاء ماركس بوعوده في الكتابة لمقالاته في مراجعة نصوصه المخطوطة، ونقده الذاتي الصارم الذي يجعله لا يرضى بسهولة عمّا كتب. وكانت شكوى روغه من ماركس واضحة في رسالة وجهها الأول بهذا الصدد إلى فويرباخ في عام ١٨٤٤ يعلمه "أن ماركس يقرأ كميات هائلة، ويعمل بحماسة غير عادية، لكنه لم يكن ينهي شيئاً، بل كان ينقطع عن عمله باستمرار، ليقفز في بحر لا نهاية له من الكتب. ويعلمه كذلك أن ماركس أصبح عنيفاً يثور بسرعة خاصة عندما يعمل ثلاث أو أربع ليال بلا انقطاع". ويبدو أنه لم يكن بمقدور روغه التنبؤ بما سيقدّمه ماركس من نصوص فكرية مذهلة، بعد أشهر وسنوات، حالما يستوعب أفكار عصره والعصور السابقة، ويتمثلها برؤية نقدية ثاقبة.

وخلال فترة الإعداد لإصدار مجلة (دويتشر ـ فرانز وسيش ياربشر/ الحولية الألمانية الفرنسية) يكتب ماركس لروغه عن مشكلاته العائلية بصراحة، ولكن من غير إسهاب. يقول؛ "ضاع ما تبقى من الوقت في خلافات عائلية مزعجة. فعلى الرغم من أن عائلتي ميسورة إلاّ أنها وضعت في طريقي مصاعب جعلتني أواجه مؤقتاً ظروفاً محرجة للغاية، وأنا لا أستطيع بالطبع إزعاجك بوصف مشكلاتي الخاصة الحقيرة. ولعل من حسن الحظ أن المشاكل العامة تجعل من المستحيل على أي رجل ذي سلوك قويم أن يسمح لمشكلاته الخاصة بإزعاجه".

كان ماركس قد نذر حياته للمهام الكبيرة والصعبة، وحين اختيرت باريس مكاناً لإصدار المجلة نقل ماركس بيته الزوجي (وكان قد تزوج لتوّه) إلى هناك بعد أن وعده روغه براتب شهري مقداره (٥٠٠ تالر) مقابل عمله في ياربشر. وفي نهاية شباط من عام ١٨٤٤ صدر عدد مزدوج منها. إلاّ أنها، للأسف، كان العدد الوحيد. وساهم فيها أسماء فكرية مرموقة (هاينه وهيرويغ وجوهان جاكوبي وموسى هس وشاب أصغر سناً من الجميع لم يكن معروفاً، يدعى فردريك أنجلس). أما توقف المجلة فكان نتيجة ضآلة التمويل والعقبات السياسية التي واجهتها بعد مصادرة ٣٠٠ نسخة منها على الحدود الألمانية، واضطرار روغه منح ماركس جزءاً من راتبه ونسخاً من المجلة! وغضب الحكومة البروسية من العدد الصادر بعدّه خيانة عظمى، وطعناً في الذات الملكية، إلى جانب إعطاء تعليمات لحكام المقاطعات بإلقاء القبض على كل من روغه وماركس وهايند وبيرنز (محررو المجلة) ومصادرة أوراقهم الرسمية بمجرد دخولهم الأراضي البروسية. وبعد سنوات سيرسل روغه إلى وزير الداخلية البروسي رسالة استرحام "يخون فيها رفاقه في المنفى في باريس، ويحمّل هؤلاء (الشبّان) مسؤولية الخطايا التي اقترفها". وسيعترف روغه في مذكراته بعد عشرين سنة أن سبب خلافه مع ماركس كان هيرويغ الذي لم يكن في نظر روغه سوى وغد فاشل، فيما أكد ماركس على المستقبل العظيم الذي ينتظره. وربما كان روغه في هذا على حق أكثر من ماركس. غير أن الافتراق النهائي بين الصديقين كان بسبب ما انتهى إليه روغه من الاعتقاد بفلسفة ستيرنر "أكثر خلفاء الفلسفة الهيغلية (بحسب فرانز مهرنغ) سوقية وابتذالاً بوصفها الدرع الواقي من الشيوعية التي اعتبرها أغبى الغباوات، ووصفها بأنها مسيحية جديدة يبشر بها السذج، ونظام يعني تحقيقه انحطاط البشرية إلى الدرك الأسفل". وحين تندلع ثورة عمّال النسيج في سيليسيا يقلل روغه من شأنها في الوقت الذي يتحمس لها ماركس قائلاً: "لننظر الطريقة العميقة المدهشة القاسية القوية التي تطرح بها البروليتاريا شعارات تناقضها العدائي مع مجتمع الملكية الخاصة... لقد بدأت الثورة في سيليسيا بوعي البروليتاريا (لنفسها) كطبقة". وكانت روحية الشباب الانفعالية وراء مغالاة ماركس في تقديره لتلك الثورة واتجاهاتها. حيث كان إحساس روغه بمحدوديتها أقرب إلى الصحة.

تلقى ماركس من أصدقائه المخلصين في كولون هدية مالية مقدارها (١٠٠٠ تالر) أعانته في أن يتفرغ لعمله الفكري في تلك السنة (١٨٤٤). وكان من أصدقائه، في هذا الوقت، الشاعر الألماني هينريخ هاينه. وكان ماركس يكن احتراماً جلياً للشعراء ويتسامح بسعة صدر تجاه نقاط ضعفهم، ويشعر بـ "أن الشعراء قوم غرباء يجب أن يُسمح لهم أن يحيوا كما يريدون" وهكذا تعاطف مع هاينه، كما تعاطف قبله مع الشاعر هيرويغ. وكان هاينه من وجهة نظره مناضلاً أيضاً، فقد أعلن في عام ١٨٤٣ "أن روح الحرية التي تنفسها أدبنا الكلاسيكي أقل فعالية بين العلماء والشعراء ورجالات الأدب منها بين الحرفيين والعمّال". وبعد عشر سنوات كتب: "إن البروليتاريين في نضالهم ضد الوضع الراهن يستطيعون أن يدّعوا أن الأرواح التقدمية والفلاسفة العظماء هم قادتهم". ودعم ماركس هاينه في نزاعه مع بورن. وبقيا رفيقين يشدهما رباط "روح الفلسفة الألمانية والاشتراكية الفرنسية" وكان هاينه مخلصاً لغوته وهيغل ضد بورن الذي صوّر غوته بالعبد الموزون المقفى وهيغل بالعبد غير الموزون وغير المقفى.

في هذه الأثناء (أيلول ١٨٤٤) قدم إلى باريس شاب مثقف، ابن تاجر منسوجات ألماني ثري، متأثر بالفلسفة الألمانية والاشتراكية الفرنسية وسبق أن نشر مقالة في مجلة (ياربشر) أعجبت ماركس.. هذا الشاب المولود في عام ١٨٢٠ هو فردريك أنجلس. وقد التقى ماركس وأمضيا "عشرة أيام منقعة بالبيرة" كما يصفها كاتب سيرة أنجلس (تريسترام هنت) في كتاب عنوانه (قائد ماركس: الحياة الثرية لفردريك أنجلس). وسيكون لذلك اللقاء القدري أثره العميق، لا على حياة الشابين فحسب وإنما على تاريخ الفكر الاقتصادي الاشتراكي والنظريات السياسية والفلسفة المادية لعقود طويلة لاحقة. ومثلما يقول لينين فقد خاض الصديقان بعدئذ "نضالاً حاداً ضد مختلف نظريات الاشتراكية البرجوازية الصغيرة وصاغا نظرية و تاكتيك الاشتراكية البروليتارية الثورية أو الشيوعية (الماركسية)".

المصادر:
١.كتاب (كارل ماركس) فرانز ميهرنغ.
٢. مقال (كارل ماركس: سيرة مختصرة وعرض للماركسية) فلاديمير لينين.
٣. مقال (أنجلس الثري المحب للحياة) ترجمة ابتسام عبد الله.. المدى ٢٠٠٩/٩/٢.

من هناك

الإسلام الراديكالي يدقّ أبواب كمبوديا

عبد الله المدني

لعل الكثيرين لا يعلمون أن في كمبوديا طائفة إسلامية تسمى "أتباع الإمام سان". وهذا الأخير كان يوما ما أحد أبرز الشخصيات الإسلامية في البلاد وأكثرها حظوة لدى الأسرة المالكة. حيث تقول إحدى الروايات التاريخية أن عاهل كمبوديا في القرن التاسع عشر الملك "أنغ دوونغ" صادف الإمام سان في الغابة وهو في حالة تأمل وعبادة، فاندهش لما رآه إلى الدرجة التي قربه معها إلى البلاط الملكي و أغدق عليه الأراضي والهدايا و العطايا المتنوعة. وفي رواية أخرى نجد ثمة أقاويل تشير إلى أن الملك وجد في الإمام حليفا جاهزا ومستعدا لدعم الحكم الملكي المترنح وقتذاك، فكان ذلك سببا في ارتباطهما بصداقة.

المهم أنه بمرور العصور صار لهذا الرجل أتباع (يقدّرون في الوقت الحاضر بنحو ٣٧ ألف شخص، يتوزعون على عشرات القرى في طول البلاد وعرضها)، بل صارت لهم أيضا مناسبات دينية خاصة من أهمها يوم مولد الإمام سان الذي يحتفلون به في أكتوبر/ تشرين الأول من كل عام في "يودونغ"، وهي مدينة ملكية قديمة تقع على بعد ٣٠ كيلومترا من العاصمة "فنوم بنه". في هذه المناسبة التي تسمى "مولوت" (الكلمة محرفة من مفردة "مولود" العربية)، تجري احتفالات مزركشة تجمع ما بين أتباع المذهب القادمين من مختلف أنحاء البلاد، وفيها يتم التواصل وعقد صفقات الزواج ما بين أسر الفتيان والفتيات أيضا، والتي لولا تلك المناسبة لاستحال على تلك الأسر إيجاد عرسان لبناتها أو العكس.

وتعتبر طائفة الإمام سان، هي الطائفة الإسلامية الوحيدة التي لا تخضع لتعاليم وسلطة مفتي كمبوديا الرسمي المعين من قبل الحكومة، بل أن أتباع الطائفة يرون أن التهديد الذي يلاحقهم ليس مصدره أتباع الديانات الأخرى الموجودة على الساحة الكمبودية كالبوذية والمسيحية والهندوسية والبهائية، بقدر ما هو تهديد ناجم عن ازدراء واحتقار إخوتهم المسلمين لهم بدعوى أن إسلامهم غير نقي ومرتبط بالحركات الصوفية أو اختلطت به التعاليم البوذية بسبب قرب الإمام سان من البلاط الملكي البوذي، خصوصا أن أتباع الطائفة يزورون المقابر ويقيمون الموالد، ولا يمانعون من بناء مساجدهم بجوار المعابد البوذية، بل لا يؤدون فريضة الصلاة سوى مرة واحدة في اليوم.

غير أن أتباع سان الذين انحدر أجدادهم من فيتنام في القرن السابع عشر، ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون أكثر التزاما وتوافقا مع مقاصد الإسلام الحقيقية من بقية مسلمي كمبوديا الذين ينتمون عرقيا إلى اثنية "تشام" والذين ظلوا إلى ما قبل سنوات قليلة يمارسون الإسلام الشرق آسيوي المتسامح والمعتدل على النمطين الماليزي والاندونيسي، قبل أن يظهر في صفوفهم من يبشر بالإسلام الشرق أوسطي المتشدد كنتيجة لما سمي بالصحوة معطوفا على تنامي العلاقات الاقتصادية والثقافية ما بين كمبوديا من جهة ودول الشرق الأوسط العربية وغير العربية من جهة أخرى، ودخول الجمعيات الدعوية والخيرية من الأخيرة إلى الأولى وقيامها باستغلال فقر وبؤس الشعب الكمبودي المنهك من الحروب الأهلية الطويلة لصالح أجنداتها الخفية عن طريق منح القروض الميسرة وإقامة المشاريع الخدمية وبناء المعاهد الدينية وتأسيس المصارف الإسلامية.

و طبقا لمقابلة أجريت مع عجوز من أتباع الطائفة البارزين ويدعى " ايك بورت"، فإن الطائفة أخذت تنحسر من حيث أعداد أتباعها مقابل ارتفاع عدد المنضوين تحت لواء تيار الإسلام الكمبودي الأعرض، وذلك بسبب أنشطة تقوم بها الجمعيات السلفية وجماعة التبليغ الكويتية و جماعات أحمدية قادمة من الهند وباكستان، وضغوطات تمارسها تلك الجهات ضد أتباع الإمام سان من الشباب الذاهب للدراسة الجامعية في فنوم بنه كي يغير مذهبه. علاوة على ذلك صارت أنماط الجوامع الممولة من قبل هؤلاء مختلفة عما اعتاده الكمبوديون المسلمون عليها من حيث أشكالها الهندسية، وأيضا من حيث الطقوس التي تقام فيها والخطب التي تلقى بها. وبالمثل صارت ملابس المسلمين من اثنية "تشام" أقرب إلى ملابس الأفغان أو ملابس رجال الدين العرب منها إلى ملابس نظرائهم في ماليزيا، كما استبدل مفهوم الولاء للوطن بمفهوم الولاء للعقيدة والأمة. ولهذه الأسباب مجتمعة يبدي "ايك بورت" مخاوفه من احتمالات عدم تمييز الأجيال المقبلة مذهب الإمام سام وتعاليمه وطريقته الدينية المميزة.

وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الأمور لم يكن لها وجود قبل عام ١٩٧٥، بل أنه في الفترة ما بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٩ التي كانت البلاد فيها رهينة في يد نظام الخمير الحمر بقيادة الجزار "بول بوت"، تم هدم ما لا يقل عن ١٣٢ مسجدا وإغلاق عشرات المساجد الأخرى كما تمت تصفية نحو تسعين ألف مواطن مسلم في حقول الموت من اصل إجمالي عددهم الذي كان يتراوح حينذاك ما بين مئة وخمسين ألفاً و مئتي ألف مسلم، بل لم ينج من مجازر الخمير الحمر سوى ٢١ عالم دين مسلم من أصل١١٣ عالما (يقال أن عددهم اليوم ارتفع إلى ٢٨٠ عالما). وبحسب مراكز الأبحاث المتخصصة في جامعات الغرب (جامعة ييل الأمريكية مثلا)، فإن مسلمي كمبوديا الذين يشكلون اليوم نسبة ١,٦ بالمئة من سكان البلاد البالغ تعدادهم ١٢ مليون نسمة أو نحو ٢٣٠ ألف نسمة، لم يستيعدوا بعد ما كان لهم من حضور ونفوذ في الماضي، على الرغم من تحسن أوضاعهم ومراكزهم بعيد سقوط نظام الخمير الحمر على أيدي القوات الفيتنامية الغازية التي نصبت حكومة ساوت ما بين المواطنين المسلمين والبوذيين لجهة الحقوق والواجبات. وبعبارة أخرى لم يستعيدوا ما كان يتمتعون به من امتيازات في العهود الملكية المبكرة مثل استثناء قادتهم من الضرائب، ودعوة ممثليهم إلى حفلات البلاط الملكي، كما لم يعد حالهم مثلما كان في سنوات الاستقلال الأولى حينما كانت أمور المذاهب الإسلامية الخمسة تدار رسميا من قبل مجلس رسمي مكون من خمسة أعضاء، وكان لكل مذهب "حكيم" لقيادة شؤونه والإشراف على مسجده، و"أمام" لقيادة أتباعه وقت الصلاة، و"بلال" لرفع آذان الصلوات الخمس.

والحقيقة أن أوضاع ونفوذ مسلمي كمبوديا من غير المتوقع أن تشهد تحسنا في المستقبل القريب، بعدما صارت أعين أجهزة المخابرات في الغرب (تحديدا الولايات المتحدة الأمريكية) وفي الشرق (تحديدا الصين) مفتوحة على كمبوديا وتراقب حركة مسلميها منذ أن ألقي القبض في عام ٢٠٠٣ على ٤٧ مدرسا مسلما من الجنسيات الكمبودية والتايلاندية والمصرية والسودانية واليمنية والنيجيرية في مدرسة "أم القرى" في فنوم بنه، بتهمة الانتساب إلى الجماعة الإسلامية الاندونيسية المتهمة بالإرهاب والتعاون مع تنظيم القاعدة المجرم، و أيضا بتهمة تقديم الضيافة والملجأ في المدرسة المذكورة للإرهابي الماليزي رضوان عصام الدين (الملقب بالحنبلي) قبل شهر من وقوعه في قبضة الشرطة التايلاندية في أغسطس/ آب ٢٠٠٣ في منتجع تايلاندي.

وقتذاك، وبينما كان مسلمو كمبوديا من اثنية "تشام" يردون على تلك الاتهامات بالقول أنها جاءت إرضاء للأمريكيين وبغية كسب ودهم ومساعداتهم واستثماراتهم، كان النائب المسلم المعارض في البرلمان "أحمد يحيى" يكيل الشتائم لرئيس الحكومة "هون سين" ويصفه بالنسخة المكررة للجزار "بول بوت". غير أن كل هذه المواقف لم تمنع السفير الأمريكي في فنوم بنه "جوزيف موسوميلي" من القول في كلمته الوداعية وهو يغادر منصبه في أغسطس ٢٠٠٨، من أن كمبوديا في خطر، وأن نفوذ الجماعات الإسلامية المتشددة وهيمنتها على تيار الإسلام المعتدل الوسطي الذي ساد البلاد طويلا في ازدياد. وربما لهذه الأسباب، سارعت واشنطون في العام الجاري إلى افتتاح مقر ضخم لمكتب التحقيقات الفيدرالي (اف بي آي) داخل سفارتها في فنوم بنه، وإرسال مدير المكتب "روبرت مويلر" لحضور الاحتفالية الخاصة بتلك المناسبة شخصيا.

وفي الكلمة التي ألقاها الأخير، أوضح الرجل دوافع افتتاح المكتب ولخصها في تزايد أهمية كمبوديا عند المتطرفين كمعبر أو نقطة تجمع للقيام بالأعمال الإرهابية التي تستهدف مصالح ومواطني الغرب. ولم ينس مويلر أن يغمز من قناة دول شرق أوسطية معينة متهما إياها بتسهيل مرور الأموال والأشخاص من جمعياتها الدعوية والخيرية إلى كمبوديا منذ أوائل التسعينيات من اجل تلويث عقول شبابها وغرس مفاهيم التشدد والتطرف فيها، فضلا عن استعدائهم ضد مكونات وطنهم من الطوائف الدينية الأخرى كالبوذية والمسيحية والهندوسية والبهائية.

لكن الباحثة الأكاديمية "أغنيز دو فيو" ترى الأمور من زاوية أخرى، فتقول في حديث لها حول كتابها القادم المسمى "مسلمو كمبوديا وفيتنام"، أنه رغم كل ما حدث لمسلمي كمبوديا من شد وجذب، وقتل وتشريد، وعزلة واستنهاض، وإغراء وتكالب، فإنهم بصفة عامة لا يرون أنفسهم سوى أقلية مهاجرة داخل الوطن الكمبودي، فضلا عن أنهم – رغم روابطهم الاثنية والدينية والثقافية والتاريخية العميقة مع مسلمي تايلاند وماليزيا – يختلفون من حيث الأهداف والطموحات، فهم مثلا لا يطمحون إلى وطن مستقل كما يفعل إخوتهم في جنوب تايلاند المسلم. كما أنهم لم يتحدثوا قط عن إزالة النظام العلماني الكمبودي الحالي من اجل إقامة نظام إسلامي كما تفعل بعض الجماعات والأحزاب السياسية الإسلامية في ماليزيا.

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١ .يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .
٢ .ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
٣. لا تزيد المادة على ٧٠٠ كلمة.

ideas@almadapaper.net